مبدأ الاتصال

نتمة خطبة السر اوليفر لدج رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني

البيولوجيون (علماء الحيوان) في موضوعهم نعم العلماء واشتغالهم به يثير الغيرة والرغبة في نفس كل من يرشدونهُ الى مشاركتهم في البحث. والاكثرون منهم ينصبون على البحث بتضييق نطاقهِ لا لا بالتوسع فيهِ حتى يشمل ما يتصل بهِ كأن التوسع في البحث لا يلتئم مع التدقيق وامعان النظر ولذلك يتكبون عنهُ. وقد يكونون مصيبين في حكمهم ولكن انكار المباحث الاخرى ليس الذنب فيهِ عليهم بل على من يفسر العالم بغير معناها ويتخذهم حجة ودليلاً في امور لا علاقة لهم بها. وليس هذا سبيل من يتوخى فهم حوادث الكون باوسع معانيهِ ولا هو سبيل العلماء لان هؤلاء يعلمون ما صار معروفاً وما لا يزال مجهولاً فيعتمدون على الاول ويحسبون حساب الثاني ولا ينفونهُ ولا يتخذون عمل عالم مشتغل بعلم واحد مفتاحاً لتفسير معنى الكون كلهِ

من الامور التي يُرى انها مؤكدة ان ظواهر الحياة لا تظهر في ارضنا من غير مادة ولذلك قيل «ان المادة تتضمن كل الصور التي تظهر فيها الاحياء». اذا كان المراد بذلك ظواهر الحياة الارضية فالقول صحيح لا غبار عليهِ لانها لا تظهر الاَّ بواسطة المادة. وقد قيل انهم «لا يرون في الجسم الحي غير نواميس الكيمياء والطبيعيات». وهذا صحيح ايضاً لان الذين قالوا هذا القول كانوا يبحثون عن المظاهر الكيماوية والطبيعية التي في الاجسام الحية ولم يكونوا يبحثون عن الحياة بالذات اي عن الحياة والعقل والوجدان — بل كانوا قد اخرجوها من بحثهم. المادة هي التي ندرك وجودها بحواسنا والبحث المادي من متعلقات العالم المادي لا كفلسفة بل كسبيل للبحث وكل ما سواهُ هو من مدار آخر يُوصل اليهِ باسالب اخرى. فيستحيل علينا ان نفسّر الامور النفسية بالنواميس الطبيعية والكيماوية ولذلك يميل البعض الى نفي وجودها الاَّ كشيء عارض ولكن هذا النفي ليس من العدل في شيء

فاذا قام المشتغلون بالعلم ونفوا وجود ما يخرجونهُ من بحثهم وجب ان لا نقبل قولهم بل نعترض عليهِ بما نراهُ من الاختبار فاننا احياء وفينا حياة وعقل ووجدان. نعلم ذلك مباشرة لا بقول قائل ولا بناء على تجربة مجرّب ونعلمهُ كل ابناء نوعنا. والولادة والموت والتزاوج ليست من مباحث البيولوجيين بل من مباحث الانسانية وقد كان الناس يعلمون بها قبلما فهموا

حقيقتها وقبل عُرف شيء من قواعد العلوم الطبيعية . ان علماء الطبيعة وعلماء النفس وغيرهم يجرّبون تجارب بهم في الناس فيبينون كيفية هضمنا للطعام وما يرافق الارادة والشعور والتفكير من الافعال المادية ولكنهم لا يصلون الى ما يتسلط عن الارادة والشعور والتفكير

اذا قال لكم احد الفلاسفة انكم غير موجودين او ان العالم غير موجود او انكم آلات مجردة لا ارادة فيها وكل افعالكم نتائج اسباب خارجية وانتم غير مسؤولين عمّا تفعلون فلا تقبلوا قولهُ كحقيقة مقررة بل اسألوا عن صحتهِ اثني عشر شاهداً عدلاً من الذين لم تتقيّد عقولهم بدرس موضوع واحد . كثيراً ما يخطئ الانسان في تفسير ما يراهُ وفي استنتاج النتائج منهُ ولكن لا مانع يمنعهُ من ان يبني حكمهُ على الحوادث المجرّدة التي يختبرها بنفسهِ . قد يخطئ في حقيقة ما يراهُ فترى النجوم على كبرها نقطاً صغيرة في كبد السماء ولكن لا يحتمل انها تخطئ في قولها انها تراها . ومثل ذلك معرفتنا بوجود الوجدان والارادة فينا فاننا نشعر بوجودهما كما نشعر بوجود الحركة والقوة

العامي لا يفهم اسلوب الرؤية اي الافعال الطبيعية التي تحدث بها فلا يعلم انها نوع من نقل التموجات بواسطة الاثير ولا يعلم شيئاً عن الاثير وتموجاتهِ او نبضاتهِ وعن شبكية العين وما فيها من الاعصاب ولا عن اعمال الاعصاب والدماغ ولكنهُ ينظر ويسمع ويلمس ويريد ويفتكر ويشعر . وهذا ليس من قبيل الاخذ بقول العامة وترك قول الفلاسفة بل هو من قبيل الاخذ باختبار الناس مدة قرون لا تحصى

كيف اتصل الوجدان بالمادة . وكيف تسلط الحياة على القوى الكيماوية والطبيعية . وكيف تتحول الحركات الميكانيكية الى شعور . هذه كلها امور عويصة ولا بدَّ من درسها قبل الوصول الى حلها . ولكن لا شبهة في وجودها . وما صعوبة حلها بدليل على نفيها . لا محل للحياة والعقل في علم الفسيولوجيا ولكن لها محل في غيره من العلوم . ولا يحسن بنا ان نخرج امراً من الامور من دائرة البحث قبلما نبحث فيهِ . فالاثير لا نشعر بهِ بمشاعرنا ولذلك جعل البعض يقولون انهُ غير موجود . وكثيراً ما يقال هذا القول عن العقل . والحياة لا ترى في المعامل الكيماوية الاَّ بمظاهرها الطبيعية والكيماوية ولكن لا نجد لنا مندوحة عن القول بانها ترشد الاعمال الطبيعية او انها تفعل بغيرها ولا تنفعل

ولا حاجة بنا الى البحث في الاحياء الميكروسكوبية او غيرها من الحيوانات غير المألوفة اذا اردنا فهم افعال الحياة بل حسبنا ان نلتفت الى انفسنا وننظر في افعالنا كاجسام حيَّة فان كل شيء موجودٌ ووجودهُ ينقض نفي الموجودات بنوع عام . واذا كان العقل والارشاد

والقصد غير موجودة كلها لاننا لا ندرك وجودها بشاعرنا فكيف نرى العالم اذا حُجب سائر الناس عن بصرنا وبقيت نواميس الطبيعة جارية مجراها

لنفرض ان كائنا من الكائنات رأى هذه الارض وكل ما هو جارٍ فيها من الاعمال ولكنهُ لم يستطع ان يرى الناس الذين فيها فانهُ يصف الاعمال التي يراها كما نصف نحن اعمال الحياة . يلتفت الى كبري (جسر) الفورث [1] مثلاً فيرى بثلاثة (ركائز) تصعد من الماء وتتفرع من اعلاها حتى تلتقي الواحدة بالاخرى وينصب فوقها جسر متصل من الضفة الواحدة الى الضفة الاخرى وتدبُّ على هذا الجسر اشياء كالحشرات من طرف الى طرف لغير سبب ظاهر . او يلتفت الى النيل ويرى فائدتهُ للقطر المصري ثم يرى شيئاً يتولد على احدى ضفتيهِ فوق اسوان والحجارة الكبيرة تقلع من الارض وتطير في الجو ثم يقع احدها الى جانب الآخر حتى يتكون من ذلك سد منيع يسد مجرى النيل من الضفة الواحدة الى الضفة الاخرى . باي قوة نهضت تلك الحجارة ووقعت في اماكن مخصوصة . يقول لاداعي للتفتيش عن قوة خارجة عن نواميس الميكانيكيات والطبيعيات ولا صعوبة في تعليل انتقال القوة فان الطعمة كانت في آنيتها وفيها قوة مذخورة وهذه القوة اتصلت الى الحجارة فاقتلعتها ونحتتها ونقلتها وبنت بها سد اسوان ولم تخلّ بناموس من النواميس الطبيعية . وليس في هذا العمل شيء من بُعد النظر لان السد رفع ماء النيل فملأ ارضاً واسعة واتلفها وعمر بناء جميلاً وسدَّ طريق الملاحة ولم يتفق ان بقيت في السد عيون ينصبُّ منها الماء رويداً رويداً فيروي اراضي القطر المصري ربَّما زاد انتظامهُ عمَّا كان قبلاً

وان قلنا لهُ ان مهندساً انكليزيًّا اسمهُ بنيامين باكر كان مقيماً في لندن لهُ يد في بناء هذين السدين قال لنا انكم تقولون المحال ويكفي لفساد قولكم ان هذا الرجل لم يكن موجوداً عند نهر الفورث ولا في وادي النيل والشيء لا يفعل حيث لا يوجد . وان كنا نرى ان الحل الحقيقي الذي يجب ان يلجأ اليهِ ذلك الكائن الذي رأى كبري الفورث وسد اسوان يبنيان هو ان الباني لهما قوة لا يراها او فاعل لا يراهُ . نعم ان نسبة الاعمال الى عامل مجهول غير محدود كالقوة الحيوية لا يفيد معنى محدوداً واما نسبتها الى القوى الميكانيكية والطبيعية التي يمكن قياسها فالقرب الى الفهم ولكن القوى الميكانيكية وحدها لا تكفي

والذي نراهُ في هذين المثالين هو اشتراك العقل مع المادة اشتراكاً فعليًّا واضحاً اي

(١) نهر في اسكتلندا على كبري (جسر) كبير هندسة السر بنيامين باكر الذي هندس سد اسوان

استخدام خواص المادة والقوة لمقاصد قصدها العقل وتمّت بحركة عضلات ارشدتها الارادة

قد يقال لنا ان هذا التمثيل لا ينطبق على ما نحن فيهِ لان كبري الفورث وسد اصوان رسمت لها الرسوم والبها لاغراض معلومة واشتغل العقل باقامتها فلا مشابهة بينهما وبين الاعمال الآلية الذاتية

اما البيولوجيون المتطرفون الذين انتقدتهم فيقولون او يجب ان يقولوا اذا لم يجدوا عن مبادئهم انهُ لا يوجد غير عمل الكيمياء والطبيعيات في كل مكان وان الاعمال العقلية الظاهرة في ذينك البنائين وهمٌ خادع او عرَض مفارق وان النواميس الكيماوية والطبيعية كافية لعمل كل الاعمال

نعم انها تعمل وتكفي للعمل ولكن الى حد محدود. فيها تعلل احمرار الشفق وارتفاع الجبال وكثيراً من مظاهر الاحياء. ولكن هل يُعلَّل بها كل شيء تعليلاً تاماً هل يمكننا ان نعلل بها شعورنا بالسرور والابتهاج وادراكنا محاسن الطبيعة وظهورها فيها. الا تدلُّ هذه الامور على وجود شيء انتفى كل هذا الجهاد في الكون

لا شبهة ان في للاشياء الطبيعية معنى اسمى من المعنى الذي يظهر لنا وان ما ننسبهُ اليها من المعاني والاغراض ليس هو كل المراد بها. اذا نظرنا الى ريشة من ريش ذنب الطاووس وتأملنا كل زغابة من زغبها وما فيها من الالوان المختلفة التي تتم مع غيرها العيون الملونة التي ترى في ذنب الطاووس او اذا نظرنا الى كل شعرة من شعر حمار الوحش المخطط وعلمنا انها بما فيها من الالوان تتم مع غيرها خطوط بدنهِ اي ان كل زغابة من زغب ريش الطاووس وكل شعرة من شعر حمار الوحش مصنوعة وملوَّنة لكي يتم بها الشكل البديع الذي يرى في ريش الاول وجلد الثاني صعب علينا ان نفسر كيف انتظمت تلك الالوان بفعل ميكانيكي محض كما يصعب علينا ان نقول ان فناطر كبري الفورث نشأت وانحتت من نفسها بفعل ميكانيكي وحجارة خزان اصوان قلعت ونُحتت وسارت الى المكان الذي بنيت فيهِ من نفسها بفعل كيماوي. نقول ان الازهار تغري الحشرات بالوانها لكي تكون واسطة لتلقيحها. والاثمار تغري الحيوانات بطيب طعمها لكي تأكلها وتفرّق بزورها. وهذان التعليلان صحيحان ولكنهما لا يفسران كل ما يتعلق بالاثمار والازهار فان جمال الازهار لا يلزم كلهُ لاغراء الحشرات ولا لتعليل تلقيح الازهار. وتفريق الاثمار لا يكفي لتعليل الجهاد الذي نراهُ بين الاحياء. لماذا تجاهد الاحياء لاجل حياتها لا بدَّ من سبب لذلك ولا بد من غرض يرمي اليهِ ارتقاء الاحياء. وهنا نصل الى غرض الوجود ومعنى النشوء

لقد عُلمت الوسائل التي تستعملها الموجودات لحفظها او علم بعضها على الاقل ومنها الانتخاب الطبيعي . ولكن ان كان الغرض من جمال الازهار اغراء الحشرات فما الغرض من جمال الغيوم ومناظر الجبال والوهاد وما فائدتهُ . والعلوم الطبيعية لا يهمها الجمال ولكن الجمال موجود لا ينكر وليس من غرضي البحث في ذلك ولكنني ارى انهُ يجب عليَّ ان اذكركم واذكر نفسي ان ما عرفناهُ لا يتناول كل ما معرفتهُ ممكنة او كل اسرار الكون واذا تبعنا خطة الانكار وقلنا اننا نستطيع ان نرد كل شيء الى نواميس الكيمياء والطبيعيات لقيَّدنا انفسنا بقيود ضيقة وحرمنا عقولنا مما هو حق واجب لها . وخير من ذلك ان نقف بالاحترام موقف الشاعر الشرقي ونقول معهُ

الكون نحوكَ خاشعاً متذلِّلاً ونجومهُ في فُلكها بكَّاه (١)

قوانا محدودة . حواسنا لم تألف الاَّ المادة التي نشعر بها . ولا شيء غيرها نستطيع ادراكهُ . وعضلاتنا واعصابها صالحة لتحريك المادة في الجهة التي نختارها . ولا نقدر ان نفعل شيئاً آخر في العالم المادي . ودماغنا واعصابنا تربطنا ببقية العالم الطبيعي . فحواسنا تنبئنا بحركات المادة وارضاعها وعضلاتنا تمكّننا من تغيير تلك الحركات والاوضاع . هذا جهازنا لحياتنا الارضية وما تاريخ الانسان سوى اخبار ما نعلهُ بهذه القوى الطفيفة التي أُعطيها

ودماغنا الذي يربطنا بغيرنا من العالم المادي على اسلوب لا يُعلم حتى الآن ظنَّ البعض انهُ يفصلنا عن العالم العقلي الروحي الذي نحن منهُ فعلاً ولكننا فُصلنا عنهُ لزمن وجيز ولسبب خاص . اتصالنا بالمادة مفيد لنا من بعض الوجوه وفيهِ عقبات ومصاعب ولكنها لا تخلو من الفائدة لانها تدعونا للجهاد واعمال العزيمة

بالمادة يعرف كلٌّ منا بوجود الآخر وبها نتخاطب مع الذين افكارهم تشبه افكارنا من حيث التعبير عنها بما نعبر بهِ نحن عن افكارنا إما بحركات تموجية كما في الكلام والغناء او بتوزيع دقائق المادة كما في الكتابة والتصوير فنتخاطب ونتفاهم . وقد الفنا هذه الوسائل حتى صرنا نحسبها هي واسطتها الوسائل الطبيعية الوحيدة للتخاطب والتفاهم وان كل وسيلة غيرها يصل بها المراد من عقل الى عقل مباشرة خرق لحرمة العلم

نعم ان اجسامنا هي الوسائل العادية لاظهار انفسنا الواحد للآخر ما دمنا في هذه الحياة الدنيا . واذا ايقت الاعضاء التي نفعل بها افعالنا المادية صعب علينا التعبير عن افكارنا واظهار

(١) [المقتطف] الترجمة الحرفية « العالم يقف خاشعاً وعيناهُ تنظران الى قدميك ونجومهُ صامتة كلها » ولا ندري من اي لغة شرقية هو فنطبقها بما تقدَّم

مقاصدنا . وجلاء ذلك صرنا نظن ان وسائل التفاهم هذه هي كل الوسائل التي في حيز الوجود واننا لسنا سوى آلات ميكانيكية يُعرَف بها وجودنا . ثم اننا نعلم ان الآلات تستخدم القوى المعروفة وهي خاضعة لكل نواميس الكيمياء والطبيعيات وعلى ذلك نبني حكمنا على ماهيتنا وعلى استحالة وجودنا مستقلين عن هذه الاحوال الزمنية والافعال المادية . وليس لنا سلطة الاّ على الاجسام المادية ولا نعرف وجود غيرها معرفة فعلية ولا نرى ان لنا اتصالاً فعلياً بغيرها فكل ما نستفيدهُ مما يتعلق بها قد يكون صحيحاً . ولكن اذا تخطينا هذا الحد وانكرنا وجود عالم آخر غير العالم المادي الذي نعرفهُ لان ليس فينا مشاعر تشعر بهِ او لانهُ مالئ كل شيء كالاثير حتى يتعذّر الشعور بهِ فنكون قد حرمنا قوانا مما نستطيعهُ واستعملناها لابطالنا

ولكن اذا تعلمنا من العلوم الطبيعية ان الشعر امر فعلي فنكون قد تعلمنا علماً كبيراً لان الشوء حقيقة ثابتة لا غش فيها والعالم يرتقي بمرور الزمن . والزمان والمكان والمادة امور مجردة ولكنها حقيقية اثبتها الاختبار والزمان محور الشوء

كم من قرون قد خلت حتى تفتّت الازاهر

اننا نجرّد من الاشياء الحية المتحركة صورة كلية نسميها مادة ونجرد من توالي الحوادث امراً نسميهِ زماناً ومتى اتحد هذان المجردان وفعلا وتفاعلا قلنا انهما شيء يقيني . والشوء يقتضي ان يكون الزمان شيئاً يقينياً فاذا لم يكن كذلك اي اذا كان الزمان فرضاً لا حقيقة لهُ انتفى الشوء

وعندي ان الوجود المادي كلهُ انتقال مستمر من الماضي الى الحاضر والفعلي منهُ انما هو اللحظة التي نحن فيها فالماضي موجود لم يتلاشَ ولكن وجودهُ في ذاكرتنا والمادة سجل لهُ والحاضر مبني عليهِ والمستقبل متولد من الحاضر وهو نتيجة الشوء

والوجود كلهُ مثل ثوب منسوج على نمط معلوم تضع ورقة مخرّمة في نول الزمان حسب الاشكال التي تريد ظهورها في النسيج فيأتي النسيج جميلاً او قبيحاً حسب انطباقهِ على الرسم المرسوم او مخالفتهِ لهُ . وعندي ان هذا هو سبب ما يرى من الخلل في اعمالنا ولا بدَّ من ذلك ما دمنا احراراً

فكون الانسان حرًّا ليُحسن او ليسيء ليس من الاوهام الباطلة بل هو حقيقة ثابتة[1] والعقلاء مسؤولون عما يفعلون ومتى اتسع الاختبار سهلت معرفة ما ينبغي ولو لم يكن

(١) ومما يوافق قول الشاعر

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها

شكلهُ مقدوراً محتوماً. وما من شيء يتعذر تغييرهُ الاَّ مرور الزمن. النسيج لا بدَّ من نسجهِ ولكن شكلهُ غير محتوم ولا معيَّن

اذا كان البحث محصوراً في المادة غير الآلية فقط فكل شيء منتظم وجارٍ على نمط واحد ولكن حالما يدخل الشعور في المادة تظهر فيها قوًى اخرى وتؤثر امثال الجزء الحاوي للشعور في بقية الجسم. ويكون الارشاد حينئذٍ من الداخل لا من الخارج ويبقى الارشاد داخليًّا على الدوام. وما نحن سوى جزء صغير من هذه القوة المرشدة ولكننا لسنا جزءًا يُستغنى بهِ

والارتقاء حسب سنة النشوء امر واقعي كبير الشأن. وما اجتهادنا في اصلاح حال المجتمع الانساني الاَّ فرع من فروع النشوء العام فرع ذو شعور يعلم ما يتوخاهُ وما يرمي اليهِ ولذلك فالنشوء غير خالٍ من القصد لاننا نحن جزء منهُ والقصد ظاهر في اعمالنا ونحن شاعرون بهِ

إما اننا خالدون او غير خالدين وقد لا نعلم مصيرنا ولكننا نعلم ان لنا مصيراً ونحن صائرون اليهِ. والذين ينكرون ذلك معرَّضون لخطإ مثل الذين يثبتونهُ لان الإنكار إثبات في صورة سلبيَّة. والناس ينظرون الى رجال العلم مرتشدين بهم فيجب عليهم ان يحذروا من تضليل الذين بلقون اعتمادهم عليهم. وقد لا يستطيع العلم ان يكشف مصير الناس ولكن يجب ان لا يلقي الحجب عليهِ حتى يتمذَّر اكتشافهُ. والاشياء هي في سواء عرفناها او لم نعرفها فاذ تسرَّعنا في الحكم ونفيناها فلا بدَّ من ان يكتشف الخلف خطأنا اذا اهتمَّ بنا. وانا من الذين يعتقدون ان العلوم الطبيعية ليست محدودة في مدارها كما يظن البعض وانهُ يمكن التوسع فيها والوصول بها الى العالم الروحي واكتشاف نواميسهِ. دعونا نحاول ذلك. انصدونا وامهلونا. دعوا الذين يفضلون البحث المادي يجرون في مباحثهم على ما يريدون ولكن لا تمنعونا من البحث في العالم الروحي ولننظر لمن يكون الفوز اخيراً. اساليبنا في البحث مثل اساليبهم ولو اختلفت مراضيعنا عن مراضيعهم فلينصف كلٌّ منا الآخر ولا يحتقرهُ

حل البداهة والالهام من الحقائق او من الاوهام. يقول البعض هذا ويقول البعض ذاك ولكن لا يجوز انكارهما من غير دليل ولاسيما لان ادلة اثباتهما قد تكون خفيَّة او مجهولة لا تظهر في هذا الزمن. وللامور الباطنة وجود فعلي ولو لم تكشف علاقتها بالعلوم الطبيعية حتى الآن. وهي مخالفة للعلوم الطبيعية ولكنها غير مناقضة لها. وكل ما لهُ وجود فعلي يجب ان يكشف وجودهُ ويبحث فيهِ بالوسائل الصالحة لهُ. وان كانت الاصوات التي

معهما سقراط وسمعتها جان دارك حقيقية فهي مما يمكن ادراكهُ

ومع اني اتكلم بلسان اهل العلم الطبيعي كممثل العلوم الطبيعية لا احجم عن ذكر خلاصة اعمالي في المباحث النفسية التي تولّيتُها منذ ثلاثين سنة الى الآن . وليس هذا محل التفصيل ولا لذكر الحوادث التي هزأ بها بعض اخواني العلماء ولكنني لا انسى ان القول الذي اقولهُ يجب ان لا يلقى على عواهنهِ لانهُ لا ينسى بل يبقى وينتقدهُ اناس يأتون بعدنا ويكونون اوسع علماً منا فرئيسكم الواقف امامكم غير مقيَّد بما يراهُ العلماء الآن . ويقضي عليَّ الانصاف لنفسي ولزملائي ان أُنبِّه سامعيَّ باثباتي اعتقادنا بان بعض الحوادث التي يقال انها من قبيل الوهم يمكن البحث فيها بالاساليب العلمية بل ان بعضها اقنعني بان الذاكرة والمحبة ليستا خاصتين بالمادة لا تظهران الاَّ بها في هذه الدنيا وان ذاتية الانسان تبقى بعد ما يموت جسدهُ .

وقد ثبت لي ان النفس المجرَّدة عن الجسد قد تؤثر فينا في بعض الاحوال ونحن في الجسد فتصير موضوعاً للبحث العلمي واننا نرجو ان نبلغ يوماً ما الى فهم شيء من احوال وجود اعظم من وجودنا هذا ولعلهُ اثيري ونفهم ايضاً طرق التخاطب معهُ . ولقد تجشم بعض الباحثين مشقة البحث في هذا الموضوع على صعوبتهِ

وعندي شيء آخر اقولهُ . وهو ان اساليب البحث الطبيعي ليست كل الاساليب التي يمكن الوصول بها الى الحقائق ولو كانت هي اساليبنا المعروفة التي نعتمد عليها

لا يزال كثيرون من رجال العلم معادين للعلوم الدينية بسبب تطرُّف اصحابها الذي عاق اسلافنا الشيَّ الكثير منهُ فانهم اضطروا ان يجاهدوا لكي يتاح لهم البحث عن الحقائق حسب الطريقة التي ارادوها . وذلك الجهاد كان امراً ضرورياً ولكن بقيت منهُ في النفوس آثار سيئة احدها هذه الكراهة بل هذه العداوة للامور الروحية

ولا يحق لنا ان نقول ان الناس لم يشرعوا في معرفة الحقائق الاَّ منذ بضعة قرون فان ما كان يدركهُ ذوو القرائح الوقادة كالشعراء والانبياء والاولياء قبل عصر العلوم الطبيعية لهُ شأن كبير لا يُنكر . ولا شبهة في ان اولئك الرجال وصلوا الى اعماق النفس ولكن الكتبة والفريسيين او سمها كان اسمهم لم ينظروا نظرهم فاضطهدوهم ورجموهم بجهلهم وعنادهم واخيراً عقد النصر لنا في هذا العصر الجديد فالتقطنا الحجارة التي رُجم بها اسلافنا وقد يحملنا الحق على اقتفاء خطوات راجميهم . فلا نرتكبنَّ ما ارتكبوهُ من الخطإ حاسبين ان سبيلنا هو السبيل الوحيد لاستجلاء غوامض الكون وكل ما سواهُ جهل وضلال . فان الكون اوسع جدًّا مما نظن ولا تكشف خفاياهُ كلها بطريقة واحدة

ايها الاخوان لقد ائتمنّا على حقائق العالم الطبيعي كما كشفها العلم الطبيعي فلنكن امناء على ما ائتمنّا عليهِ

الدين الحق اصولهُ راسخة في اعماق النفس وفي حقائق الاشياء ولا عجب اذا لم تصل اليهِ باساليبنا العلمية لان اعمال الله كلية شاملة غير محصورة ولا مقيدة ونحن لا تصل اساليبنا العلمية الاَّ الى معرفة الجزئيات فلا ندرك الاشياء الاَّ اذا رأينا فيها تغيراً او تولداً او انفصالاً . ونحن صمٌّ عمي عن كل عظمة ذاتية ما لم تقوَ بصيرتنا حتى نرى في ثوب الوجود الخارج من ثول الابدية حلَّة الله سرمدي سائرة نحو الكمال

المرأة والعمل

لا شيءَ أدعى الى حيرة المتأمل في نظام هذا الاجتماع من جمعهِ بين طرفي الافراط والتفريط من ضروب المتناقضات . فمن نظر الى حال المرأة في نظام هذه المدنية الحديثة لا يسرُّهُ من ارتقائها امر حق تبكيهِ من انحطاطها امورٌ كأن ناموس رد الفعل في شأنها آخذ مأخذهُ على اقوى تأثير واشد ظهور . فانها ما كادت تنشط من عقال ذلك الذل القديم والاستعباد الذميم وتنشق نسيم الحرية في رياض الامال حتى اعادتها الحضارة الاوربية الى مظالم من القسوة والغلظة تعبث بكرامتها المعنوية وتفسد هيكلها الملكي اللطيف افساداً لا بُدَّ ان يُفضي دوامهُ الى انحطاط النوع البشري بينما هو يبغي الارتقاء

والعقلاء في تعليل هذه العواقب الوخيمة فريقان . الاول يذهب الى ان غلوَّ المرأة العصرية في مطالب مساواة الرجل وانبعاثها في طرق الترف والتزين هما علَّة هذا الشقاء فهي الجانية على نفسها ذلَّ الطمع ومذلَّة الاشراف . فلو انها رضيت بما قُسِمَ لها من الحظ الطبيعي تحرص على الزرع والضرع وتقوم على تربية النسل وتدبير المنزل بعد احراز النصيب الكافي من العلم والتهذيب لدامت لها النعم وكُفيت شرَّ هذه النقم . والآخر يقول ان اللوم كلهُ واقع على هذه المدنية الجائرة . فبعد ان اصبح العيش فيها حياة زحام وسباق اضطرت نساء الاوساط والعمال الى معاونة رجالهنَّ في تحصيل اسباب المعاش عملاً بالتضامن وحفظاً للبقاء . هذا اذا لم نقُلْ ان الرجل لما رآها تجاوزت حد المعقول في طلب المساواة لهُ كاد لها كيد هذا التعاون في العمل المضني لقواها كأنهُ يقول اذا لم تقنعي بحقك الطبيعي فذوقي ثمرة الطماعة . ومن لم يرضَ بحقهِ اضاعهُ